مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في الأولين والآخرين ، وعلى من اتبع هداه واستن بسنته إلى يوم الدين ، ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وأنطقنا بالحكمة ، واجعلنا من الراشدين فضلا منك ونعمة . وأخرجنا اللهم من ظلمات الوهم ، وأكرمنا بنور الفهم ، وعلمنا ما لا نعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم .

ونعوذ بك اللهم من شرة اللسن ، وفضول الهذر ، ونستوهب منك توفيقا قائدا إلى الرشد ، وقلبا متقلبا مع الحق ، وإصابة ذائذة عن الزيغ ، وبصيرة ندرك بها عرفان القدر ، وأن تسعدنا بالهداية إلى الدراية ، وتعضدنا بالإعانة على الإبانة وتعصمنا من الغواية في الرواية ، وتصرفنا عن السفاهة في الفكاهة ، حتى لا نرد مورد مأثمة ، ولا نرتهن بتبعة ولا معتبة ، ولانلجأ إلى معذرة عن بادرة [1] .

أما بعد فهذه رسالة في «منهج قراءة التراث الإسلامي» أقدمها إلى حملة العلم ، المستشرفين لقراءة علمية للفكر والتراث الإسلامي ، المتطلعين إلى منهج أصيل في قراءة الآثار والأفكار ، والاستفادة من هذا التراث الذي راكم الناس فيه الغث والسمين ، وخَبَّ المتزيدون فيه وأوضعوا ، فشغلوا هذه الأمة بالفضول والحشو عن الاشتغال بما ينفع المسلمين من أسباب الرقي العلمي والحضاري .

وقد تصدى أعلام الأمة من حملة ألوية النقد لنخله وغربلته والدفاع عنه كما قال النبي ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » [2] .

---

(١) عن مقدمة المقامات الأدبية لأبي محمد الحريري ٥١٠ هـ : ٩ بتصرف

(٢) أخرجه الدار قطني في السنن، والطبراني في مسند الشاميين:١/ ٣٤٤ وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ١٨٠، وفيه بقية بن الوليد مدلس، قال القاسمي وتعدد طرقه يقضي بحسنه كما جزم به=

و تندرج أهمية هذا الموضوع ضمن مشروع «تجديد الفكر الإسلامي» لما يهدف إليه من الاستفادة من النقط المشرقة في تراثنا الفكري والحضاري ، وترك الاشتغال بما ضيع على الأمة زمنا في الجدل العقيم ، والتعلق بالفكر الوافد دون فائدة .

فإن الأمة اليوم في زمن أحوج ما تكون فيه إلى ترك الحشو والفضول الذي هو من حسن إسلام المرء ، وتصفية المشارب ، والاشتغال بما يفيد من عصارة هذا الميراث الفكري والحضاري ، وامتلاك ناصية العلم ، والتحكم في المعارف بمناهج النقد والأخذ والرد ، لا بالتقليد والاجترار ، وفقه سنن الله في تغير المجتمعات وتعاقب الحضارات ، والنظر فيما ينفع الأمة نظر تطوير وإبداع ، لا نظر ترف وامتناع ، بالتغني بالأمجاد والوقوف على الأطلال .

ذلك أن إخلاصنا لأسلافنا لا يكون بالمحافظة على تراثهم كأنه رماد ميت بغثه وسمينه ، أو جثث محنطة بعيدا عما ينفع الناس في واقعهم اليوم ، لكن بغربلته وإحالته فكرا حيا متوقدا ، ومشعل نور يبعث الحياة في حاضرنا ومستقبلنا ، بما فيه من جواهر كريمة ، وكنوز دفينة ، ينبني عليها التقدم العلمي الحضاري لأمتنا .

ولطالما شغلتني فكرة هذا الموضوع بعد طول بحث في مجال نقد التاريخ الإسلامي ، لما اطلعت عليه من البلايا والرزايا التي أصيب بها تراث المسلمين من لدن القاسطين ، وأهل الأهواء من الفلاسفة والمتكلمين ، وهو تراث تليد ، يمثل جانبا مهما من المعرفة الإسلامية ، بُنيت عليه مواقف وأفكار ومذاهب عبر التاريخ ، صحح العلماء المحدثون والمفكرون جوانب منها ، وما بقي وخفي أعظم [1] .

= العلائي» : قواعد التحديث ٤٧ ، وذكره ابن القيم في مفتاح السعادة وقواه لتعدد طرقه ١/ ١٦٣-١٦٤ . واستظهر ابن الوزير اليماني صحته وحسنه لكثرة طرقه، ونقل ابن عبد البر تصحيح الإمام أحمد له، وترجيح العقيلي لإسناده 'الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم :١/ ٢١-٢٣)

(١) وقد فصلت ذلك في «إعادة كتابة التاريخ الإسلامي في ضوء منهج الجرح والتعديل»، وممن كتب في هذا الموضوع الشيخ أحمد شاكر ~ ، ومحب الدين الخطيب في تعليقاته على العواصم من=

وقد تحصل عندي أنه لم يكن أضر على المسلمين من مطلق القبول والتسليم بكل ما قيل وأثر في تراث الماضين ، وتعطيل نعمة النظر ، والغفلة عن منهج الأخذ والرد في العلوم ، إذ تقرر أن كل الناس يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ .

ومن بواعث تصنيف هذه الرسالة أنه جرى في بعض أندية العلم والأدب حديث عن قواعد منهجية تشد الفكر ، وتسدد النظر وتصونه من الاسترسال في الخطأ والزلل في التلقي والاستدلال ، إثر محاضرة مع بعض الفضلاء ، من بقية أهل العلم في هذا الزمان ، فأشار بعضهم أن لو أُلف فيها مصنف جامع لبعض قواعد المعرفة ومنهج النظر في التراث لكان للناظرين إماما ، وللسادرين في ميادين الفكر زماما .

فاستعظمت هذا الأمر وأحجمت عنه زمنا إحجام المرتاب ، رغم تحرك باعث الهمة للكتابة والتصنيف فيه ، لأنه علم صلف ، كان للسلف فيه إشارات وعبارات في أصول البحث والمناظرة ، وتفرقت قواعده عند أهل العلوم والفنون ، وقل المعانون له من غير نقاد الحديث والرجال وعلماء الأصول .

ثم منَّ الله بعد حين بولوج هذا الباب ، واستخلاص ما في قواعده من اللب واللباب ، وهو علم ركدت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، وهزلت صناعته في سوق العلوم والمعارف ، لاسيما وأن النظر في الفكر الإسلامي اليوم أصبح ميدانا مشرع الأبواب يلزُّ فيه كل دعي ، ويلجه الصغير والكبير ، وقل أن يلتفت المستعجلون فيه إلى قواعد العلم وضوابط المعرفة ، لكونها مسالك وعرة تفرقت في شعاب المعارف والعلوم ، تُضني الأفكار ، وتشقى في مداركها العقول والأنظار ، وتكبح جماح المجترئين بلجام الأدلة ، وتحقيق صحة الدعاوى والأخبار ، مما تفنى دونه الأيام والأعمار .

= القواصم لابن العربي، والشيخ محمد عابدين أبو اليسر في كتابه «أغاليط المؤرخين» والدكتور أكرم ضياء العمري في «صحيح السيرة النبوية»، و الدكتور عماد الدين خليل في كتابه «في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج» .

وما نحن فيه بإزاء من مضى من صيارفة المعرفة ونقاد الآثار إلا «كبقل عند أصول نخل طوال» ، إذ هو مقام يحتاج إلى انتخاب معادن العلوم وأباريزها ، وينأى عن حشد شذورها وفضولها ، مما تراكم من أخطاء حبلت بها بطون كتب التراث ، وما تسرب من جهة أهل الغفلة الناقلين عن كل من هب ودب ، كحاطب ليل ، وجارف سيل .

ومن ثم فإن الزلل في هذا المقام يكون من جهة إكثار القيل والقال ، والتسليم بكل ما أثر في تراث الماضين من رأي أو مقال ، دون تمييز بين غث وسمين ، أو معرفة شمال من يمين ، وقد قل أن سلم مكثار ، أو أُقيل له عِثار .

فإن خلع رسن العلم والتأصيل ، وإلقاء الكلام على العواهن بغير دليل أهون شيء عند المجترئين ، وهو سبب ما ظهر اليوم بين المعاصرين من الغثاء الذي ينشر باسم الفكر الإسلامي ، مما صنعه أصحاب ثقافات بالية مغشوشة .

ومن المعلوم أن كل الصنائع والعلوم لها أبواب وعليها محتسبون ، إلا مجال الفكر والتراث الإسلامي فقد أصبح مع هؤلاء مهيعا واسعا ومرعى فسيحا مشرع الأبواب لكل من ظهر له رأي يهذي به في المنام ، تراه يتسور هذا الحمى ، ويتولج مجال التنظير ، ليسود أعمدة الصحف بكلام سخيف ، ويملأ دنيا الإعلام شغبا وضجيجا ، دون أناة نظر وتأصيل ، أو أثارة من دليل ، وقد تسربت هذه الجرأة على التراث إلى ميادين البحث العلمي ، حيث ابتلينا بمن أصبح يهذي بذلك على كراسي الجامعات باسم حرية الفكر والنظر والاجتهاد .

ولا يخفى أن صناعة التأصيل ونقد المعارف مقام يحار فيه الفهم ، ويفرط فيه الوهم ، ويسبر به غور العقل ، وينكشف به معدن الإنسان في العلم والفضل ، ولا يزال المرء في فسحة من أمره ما لم يؤلف كتابا أو ينظم شعرا ، أو ينتقد رأيا ، ومن ألف فقد استهدف ، لأن رضا الناس جميعا غاية لا تدرك .

لكن من جرد النية لخدمة العلم بما يراه صوابا لا ينبغي أن يعبأ بما عبا له ، مما قيل

أو يقال ، فإنما تدرك غاية الأنظار بعد استكمال العُدة بخوض الغمار ، ونحت الأفكار في الميدان ، كما يمعن في ذلك أهل الباطل بقوة وجلد لا يترددون ولا يلتفتون إلى الأغيار ، في عالم لم يعد فيه موطئ قدم للعاجزين ، ولا أثر يُسمع فيه للنوكى والمقصرين ، كما قال أمير الشعراء شوقي ~ :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا إن الحيـــاة عقيـــدة وجـــهاد

أما من تنكب الصراحة فيما يراه صوابا ، وتحَّسب آراء الخلق ، خشية حصائد ألسنة بني الإنسان ، فقد وجب أن يكون حِلس بيته ، وينام في مناخ البطالة قانعا بظنه وحدسه ، فينفسح المجال حينئذ للعابثين ، وترتفع أصوات المبطلين ، ويصبح المحجم عن النزال بعد استشراء الأهواء والفتن كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه .

وقد آثرت الاقتصار في هذه الرسالة على الجوانب المنهجية في تأصيل المعرفة الإسلامية ونقد التراث ، لما للمنهج من خطر عظيم في إدراك الحق ، أو الانزلاق نحو الباطل ، إذ أن الاشتغال بنخل الفروع المتشابهة لا ينضبط بغير أصول ومنهج يرجع إليه ، لأنه أمر تفنى دونه الأعمار ، وتنقضي في غمراته الأزمان ولا ينتهي .

ومن ثم فإن قضية المنهج هي من «الفقه الأكبر» الذي لا يستقيم العقل المسلم ولا يرشد إلا به ، ومن أجل ما ينبغي أن يُعنى به الناظرون في الفكر الإسلامي قبل التفكير والتنظير ، إذ سلامة المنهج سبيل الرشاد في فهم التراث ، وتمييز الحق من الباطل ، ومناط سداد الفكر والسلوك ، مما لا يرجى بغيره للأمة سيادة ولا ريادة .

كما قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢] .

وأمتنا اليوم في أمس الحاجة إلى تشخيص علل الفكر وأدواء المعرفة ، لإدراك الآفات التي حالت بيننا وبين مقام الريادة ، كما كان أسلافنا من قبل ، وجعلتنا ذيلا وذليلا لغيرنا ، متعلقين بها أخر الأمة زمنا ، وأغرقها في الأهواء والخلافات،التي لم

تجن منها خيرا يُذكر .

ولا يتم ذلك إلا بفقه معالم المنهج في تأصيل المعرفة وصيانة التراث الإسلامي من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وكشف زيف مناهج القاسطين وأثرها على الفكر والتراث ، تنزيها لفكر الأمة من الحشو والفضول .

وهو سبيل حسن فهم الدين ، واستيعاب النافع من التراث ، واستخلاص الفكر الإسلامي الأصيل ، وتصفيته من ترهات الفلاسفة والمتكلمين ، وتحريف الغالين من دعاة الحداثة الذين جعلوا القرآن والسنة عضين ، وبعثوا في الأمة أفكارا دخيلة ، علقت بعقولهم من أوهام وأساطير الأمم ، ينفرون بها الناس من الدين ، حتى صار في مجتمعات الحداثة رسوم في كتب التراث ، لا أثر له في واقع الحياة .

وقد يجد القارئ في مطاوي هذه الرسالة عبارات يراها نابية عن سمعه ، ويحسبها جارحة بحسب طبعه ، فليعلم أن صيانة حمى الحق لا يُنال بالمصانعة والمداهنة . فلئن كان إحقاق الصواب لا ينسينا حسن الخطاب ، فإن التلطف في دحض الباطل لا يثنينا عن رفع النقاب ، وكشف الألقاب ، نكاية بالقاسطين ، وشفاء للمُقسطين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات ، تكون بحسب الحاجات ، كالسلاح في المحاربات ، فإذا كان عدو المسلمين في تحصنهم وتسلحهم على غير الصفة التي كان عليها فارس والروم ، كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة ، التي مبناها على تحري ما هو أطوع ، وللعبد أنفع» (١) .

فدع عنك كلمات المداهنين الذين يرون من الحكمة مغازلة المبطلين ، ورمي باطلهم بصوف منفوش ، لا دمغه بحجر منقوش ، تأليفا للقلوب ! وحسب المرء تحري العدل والإنصاف مع المخالفين حمدا وذما ، بنقد الأفكار دون إزراء بذوات الرجال ، والحرص على حفظ أدب الخلاف مع العلماء من أولي السابقة والغناء ، وهو

---

(١) فتاوى ابن تيمية : ٤ / ١٠٧ .

أدب لا يحفظ مع السفهاء المجترئين على الملة ، والمجاهرين بنقض عرى الإسلام .

ومن ثم فإن مصنفا كهذا إن سر قوما من أهل التجرد ، ممن لا يضرهم بيان خطأ مؤالف ، أو ذكر صواب مخالف ، فإنه يغيض آخرين من أهل التعصب للطوائف والرجال ، ممن كثر سوادهم في هذا الزمان .

ولست بحمد الله ممن يطلب مرضاة الخلائق بالمحاباة والمداراة فيما أراه صوابا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقال الشريف المرتضي :

إذا الله لم يعذرك فيما ترومه ... فما الناس إلا عاذل ومؤنب

والمرء إن حظي بثناء محب متغاضي ، أو إغماض فطن متغابي ، فإنه لا يسلم من قدح غمر جاهل ، أو نكد خصم متجاهل ، يضع الكلام في غير مواضعه ، ويحمله على غير محامله ، ثم يحشر نفسه في مضايق تكفل الله بها من أمر النيات والسرائر ، وينتصب كاهنا يكشف عما في الضمائر ، ويقيم جلبة وصياحا لنصرة باطل أوفهم كاسد جاء به مُؤالف ، أو رد حق قال به مُخالف ، حتى إنه ليُرى حملة العلم بين هؤلاء ، أضيع من الأيتام في مأدُبة اللئام ، كما حصل للزمخشري مع أهل زمانه حيث قال :

وأخرني دهري وقدم معشرا ... على أنهم لا يعلمون وأعلم

ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني ... أنا الميم والأيام أفلح أعلم

ذلك لأن العلم أصبح فُضلة ونافلة في حياتنا ، والقراءة أضحت وقت فراغ في أيامنا ، و آل أفاضلنا أنصافَ مثقفين ، وأحيانا أميين ، أو أشباه الأميين ، وهي حال لا يُرجى معها خير لهذه الأمة حتى يستقيم ذلك العوج فينا ، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا يقوم لله بالحجة في الأرض سوى أجيال من العلماء الراسخين ، في شعب العلوم ، بمنهج أصيل ، لأنه لا يقود الأعمى البصير .

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم ... لقد ضل من كانت العميان

وإنه لا يليق بعاقل أن يدع صفاء المنهج الإسلامي الأصيل وظلاله الوارفة ، ثم

يتعلق بأهواء لم تزد أصحابها إلا اختلافا وبعدا عن الجادة ، ويرضى لنفسه مراتع القاسطين ليقتات منها ، مع إدراكه ما أورثت الأمة من علل وأسقام ، لكن الناس سراع إلى أهواء الدنيا .

فلو تخلص المسلمون من نفايات التراث ، وما حملته من نحل وأهواء محدثات أنشبت بينهم خلافا ونزاعا ، وسلموا لما جاء عن الله ورسوله ﷺ لسلمت أحوالهم ، واستعانوا على عدوهم بوحدة المنهج والكلمة ، بدل أن يقتتلوا تعصبا لآراء المبطلين ، ممن لم تجن الأمة من وراء أهوائهم سوى الشوك وخرط القتاد .

وما أحوج أمتنا اليوم إلى أذهان مرتبة ، وعقول مبصرة ، حتى نغالب أمم الأرض ، في وقت اتجه الأعداء فيه إلى استثمار العقول والأدمغة ، ونامت الأمة عن ذلك . ومعلوم أن ترتيب الذهن لا يكون بزحمة الآراء ، أو تجميع حشود النظريات والأفكار الملتقطة من هنا وهناك ، ورقاعات ما تقذف به الصحف والجرائد كل يوم . بل بفقه سنن الله الكون ، وإدمان النظر في محكمات الشرع ومتطلبات العصر ، مما ينفع الأمة في صناعة الحاضر والمستقبل .

والله تعالى نسأل أن يبصر المسلمين بما فيه صلاحهم وهداهم ، وأن ينفع بهذا المصنف كل مطلع عليه ، وهو جهد المقل ، لا أدعي له التمام والكمال ، فما كان منه صوابا فمن الله وما كان خطأ فمني ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

أبو جميل الحسن العلمي

آزرو- المغرب ١٤٣١هـ